الخال فانيا

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

ولد تشيكوف عام ١٨٦٠ م من أبوين رقيقي الحال ، وقد اضطر — وهو لا يزال صبياً — إلى العمل لينتشل أسرته من براثن الموت جوعاً ، واختار أن يكون عمله كتابة القصص الفكاهية ، ولم يكن يرجو من ورائه إلا كسب الرزق ، فلم يكن ينظر إلى فنه نظرة فنان ولكن نظرة تاجر مكتسب ، إلا أن نجاحاً صادفه غير وجهة حياته وخلق منه أديباً من أكبر أدباء الروس في القرن التاسع عشر . وكانت حياته سلسلة متصلة من العمل المرهق والجهاد الشاق ، فتآكل جسمه الرقيق على متانة بنيانه ، وقضى مصدوراً .

وقصة الخال فانيا التي نلخصها له من رواياته المسرحية الناجحة :

***

نحن في حديقة بيت ريفي جلس فيها حول مائدة الشاي طبيب يدعى « استروف » وامرأة عجوز هي « مارينا » والطبيب رجل أعزب ساخط يشكو من الشكوى من حياته ، فهو يسلخ عمره بين المرضى يعالج أدواءهم ويضمد جروحهم ، نهاره مشغول بالعمل وليله مقطوع بتلبية الاستغاثات ، ثم إنه بعد هذه التضحيات الجسام التي يبذلها للإنسانية لا يدري إن كان سيذكره أحد ممن أفنى شعلة حياته ليضيء لهم الحياة .

وقد أتى اليوم خاصة ليعود الأستاذ « سير يا كوف » . والأستاذ مريض عنيد يأبى إلا أن يشخص مرضه بنفسه ، ويصر على أنه مصاب بالروماتزم ، في حين يؤكد الطبيب أنه مصاب بداء المفاصل !

يجلس الطبيب مفكراً في خواطره الحزينة ، فيدخل عليه « فينتساى » شقيق زوج الأستاذ المذكور القديمة ، ولا نلبث حتى يظهر لنا جلياً أنه هو الآخر يشكو من حياته ومن الأستاذ ؛ أما حياته فلأنها جافة مرة لا تحفظ له ذكرى جميلة من الماضي ولا تبشره بأمل زاهر في المستقبل ، وأما الأستاذ فلأنه قلب نظام الدار بتصرفاته وطرق حياته الشاذة ، ولكن هذا إن أمكن أن يفسر لنا سخطه عليه فلا يمكن أن يكفي سبباً لبغض مر يدفنه له في صدره ويطفحه على لسانه ، فإذا سمعناه يتحدث بلهفة عن زوج الأستاذ الجميلة (الجديدة) فهمنا بعض الفهم ، وإذا سمعناه يتحدث عن الأستاذ متهماً إياه بأنه أفقده ربيع حياته وهو يخدعه بعلمه المزيف وقيمته التي كان يظنها في السماء وهي في أسفل الأرض ، فهمنا كل الفهم . والأدهى من ذلك

أن قربه من هيلانا ـ زوج الأستاذ ـ مع ، يأسه منها أصاباه بنكسة خلقية ، فأمسى كسولاً مهملاً سكيراً ، وكان نشيطاً مجداً مستقيماً .

وإذا هو فى سخطه يدخل الأستاذ « سيريا كوف » وزوجه هيلانا وابنته صونيا (ابنة أخت فيتسكى) ؛ والأستاذ حديث العهد بالقرية ، وهو لم يقصد إليها إلا مضطراً بدافع الفقر ، وهكذا قنع بأن يقيم فى هذا البيت الذى ورثه عن زوجه القديمة المتوفاة . . . يسرع الأستاذ بالدخول إلى غرفته ويبقى الجميع يتحدثون ، ويدور بينهم حوار يكشف لنا الستر عن نفوسهم . فالطبيب له مبادىء ثابتة ، هو ميال للنيات ينعى على الانسان كسله وجبنه ، إذ يهلك الغابات ويحرقها ويحرم الوجود جمالها ، ويغير على حقوق الأجيال القادمة ، تلك الأجيال التى هى موضع اهتمامه وقطب آماله ؛ أما فيتسكى (الخال فانيا) ، فهو على النقيض من ذلك ، لا تترك غرائز السخط والهدم فراغاً فى صدره لغيرها ، لذا هو يسخر من الطبيب ومن الأجيال القادمة التى يعمل حسابها . فاذا تحدث إلى هيلانا أبدى لها أسفه على حياتها وأشفق بها من الكسل والملل اللذين يصيبانها بسبب زوجها ، وهى تضيق بحديثه ذرعاً وترد عليه ساخرة .

« آه ! الكسل والملل ! جميع الناس يرمون زوجى بكل سوء . . . وجميعهم يرعونى بعطف وحنان ! لها زوج عجوز ! يالها من عاطفة ويالى من شديدة الفهم لها ! إن كل الأمر ـ كما قال ستروف ـ أنك نزاع لإفناء كل شىء من غير تمييز ، فكما تفنى الغابات تفنى الإنسان . وبهذا لا تبقى على ظهر الأرض أمانة أو سذاجة أو تضحية ، لماذا لا تستطيع أن تلحظ امرأة غريبة بهدوء ؟ لأنه تستقر فى قرارة نفسك عبقرية التخريب . . . ليس عندك رحمة لغابة أو شجرة أو امرأة . . . »

ولكنه يزور هذه الفلسفة ولا تخفى هى بازوراره . . وتستطرد حديثها متناولة مواضيع وملاحظات شتى . . . بعضها عن الريف وبعضها عن الطبيب ، والبعض الآخر عن صونيا وحبها الطاهر للطبيب . . ولكن ماله هو وملاحظتها . . . فإن عنده الأهم . عنده هذا الحب الملتهب فهو يصرح لها به . . . إلا أن أطماع حبه ضئيلة لا تتناسب مع شدة حرارته . . . فهو يقنع بأن تسمح له برؤيتها ، وأن تتحمل الإصغاء إليه . . . ولكنه فى كلامه يعلو صوته ، فتجفل هى وتهمس فى أذنه :

« بصوت منخفض وإلا سمعنا أحد » ، ويرد عليها بحرارة « دعينى أحدثك عن حبى . . . لا تهزئى بى . . . وحسبى الحديث سعادة كبرى » ، إلا أنها تضيق ذرعاً حتى بالحديث ، وتقول له وهى تختفى عن عينيه « حتى هذا ثقيل »

* * *

فى سكون الليل ، وفى ساعة متأخرة منه . كان « سيريا كوف » جالساً مع زوجه لا يرمق له جفن ولا يسكن له ألم ، والأستاذ لا تقتصر آلامه على جسمه الناحل ، فإن نفسه مضطربة قلقة ،

وخياله طائش لا يدعه يستريح ، فهو يتأفف من شيخوخته ، أضعاف ما يتأفف من مرضه ، وأى مرض هذه الشيخوخة ؟ لقد أنهكته وجعلته بغيضاً للقلوب ثقيلاً على النفوس ، لايذكره لسان إلا بالسخط عليه والشكوى منه . وهذه زوجه أقرب الناس إليه تجزع من شكواه المتكررة وتضيق ذرعاً بأناته وزرزته . وهو - إلى كل ذلك - فقير يتألم من الفقر ، ويتحسر على جهده العلمى الضائع ؛ وعلى الشهرة التى نشدها فما استجابت له ، فإذا دخلت ابنته لم يلق منها إلا اللوم ، وهى تلومه من أجل الطبيب الذى تحبه والذى يضايقه بعناده ، وبينا هو موزع بين هذه الخواطر المؤلمة يدخل الخال «فانيا» ويلح فى أن تنصرف هيلانا وصونيا ليناما ، على أن يسهر هو معه ! ويصرخ الأستاذ فزعاً ، إذ كيف يمكن أن يبقى مع من يمقته مقتاً ذريعاً ؟ ... فإذا ترفقت به الأم مارينا وأظهرت له الحنان سار معها طائعاً إلى غرفة نومه كالطفل الغرير ، وتخرج كذلك صونيا ، ويبقى فيتشكى مع هيلانا ؛ ويجدها متبرمة بحياتها تتألم لحال زوجها الذى لا يأمن لها ، وتشكو من ابنة زوجها التى تخاصمها لأوهى الأسباب وتتأفف من أمه التى تتكبر على الجميع بما تحسه فى نفسها من قوة الفهم وسعة الثقافة ؛ وتلومه هو على كرهه المفرط زوجها . ما هذه البغضاء القاتلة ؟ حقاً إن العالم لا تهدد طمأنينته الميكروبات والمجرمون ، نصف ما تهدده البغضاء . ثم إنها تطلب منه أن يصلح من أمر هذا البيت المشوه !

هو ! ولكن كيف يفعل ذلك وهو لا يدرى كيف يصلح من أمر نفسه ؟ وبينا هى تحادثه يتفضح أمامها وتلاحظ أنه سكران سكراً خفيفاً ؛ وعلى كل حال فهو لا ينكر نقائصه وعيوبه ، ولكنه من جهة أخرى يعلن فى غير ما حرج أن حبها هو المسئول عن كل ذلك ... وتضيق بحديث حبه فتخرج .

ويخلو هو إلى نفسه يحاسبها : كيف أنها عبدت هذا الأستاذ فى الماضى عبادة بطل من الأبطال ؟ وكيف أنها بذلت عن رضاء خير ما فيها فى سبيل خدمته وتوفير الراحة له ؟ .... ويقطع الطبيب عليه حبل تفكيره بدخوله وهو يهذى فى سكره ، ويتهم الخال فانيا بحب زوج الأستاذ ؛ وينصرم حبل الجدل بينهما إذ تقبل عليهما صونيا ؛ وتندفع الفتاة تلوم خالها على سكره وقد كان مستقيماً فاضلاً ، ولكنها تخفف من غلوائها إذ ترى الدمع يلمع فى عينيه ... وتسمع صوته الضعيف يقول لها : « لو ... لو كنت تعرفين» ؟ وتسأله فى لهفة : «ماذا ياخال إذا كنت أعرف ؟» ؛ ويرد عليها وهو يهم بالخروج «إنه لمؤلم ... إنه لقبيح ... لا شيء ... سأقوله لك فيما بعد .. لا شيء .. إنى ذاهب !»

وتمشى إلى الطبيب تلومه لوماً خفيفاً على سكره .. وتقول له إذا كان يحب البناء وينعى على الإنسان تخريبه مخلوقات الله الجميلة ، فكيف يسمح لنفسه أن يفنى جسمه وهو هبة من الله بالخمر والعربدة ؟ وتحنو عليه وتحدثه ... بل تلمح إلى حبها ، ولكنه يصدمها صدمة قاسية ، فإذا سألته ماذا يفعل لو كانت لها أخت تحبه ؟ أجابها بأنه ليس له فى الحب مجال ... ويختفى أمام من

من امام عينيها . وهكذا تصدع قلبها بمثل ما تصدع به قلب خالها فى نفس المكان ، إلا أن نفسها لا يعلق بها ما يعلق بنفسه من السخط والبغض . وتدخل عليها هيلانا وتتصافحان وتتصافيان ويتساقان بينهما الحديث فتؤكد هيلانا للفتاة أنها لم تتزوج أباها طمعاً فى شىء وإنما حباً فيه ، فقد كانت تحبه كما يحب الإنسان عالماً من العلماء ، وظنت أن هذا الحب كفيل بتوفير السعادة لها كزوجة له فخاب أملها . وهى تعترف بأنها ليست سعيدة ، وتصرح لصونيا ـ رداً على سؤالها ـ بأنها تود لو كان لها زوج شاب ... ثم تتحدثان عن الطبيب فى إعجاب ... والظاهر أن الحديث هاج عواطف هيلانا بحيث أحست رغبة للعزف على البيانو ، ولكن زوجها لم يسمح لها بذلك فلم تفعل .

* * *

نحن فى غرفة جمعت الخال فانيا وهيلانا وصونيا . . . وهيلانا لاتنى عن التذمر والشكوى ، وصونيا تنصح لها بالعمل فهو الدواء الشافى الملل والضجر . . وتقول إن العطلة والملل معديان وإنهما قد سريا منها إلى خالها وإليها وإلى الطبيب ، وهنا يخرج فانيا ليقطف لها باقة من الزهور . وفى خلوة المرأة بالفتاة تعترف لها هذه بحبها للطبيب . . . ماالعمل ؟ إنها تشك فى مبادلته لها الحب ، ولولا حرصها على تعلة أمل لحاولت معرفة الحقيقة ، وتقترح هيلانا عليها أن تحاول معرفة ما فى صدر الرجل ، فإن كان حباً لها كان بها ، وإن كان جفاقاً اضطرته إلى أن يعدل عن غشيان الدار بتاتاً ، وتوافقها الفتاة بقلب خفاق ، وتقصد هيلانا إلى الطبيب وهى تحمل هذه النية ولعلها تحمل معها عاطفة أخرى تغريها على التحدث إليه ! . . . وينكشف لها الأمر فإذا الطبيب لا يميل للفتاة . . فلما تقترح عليه العدول عن المجىء . . يرفض ! ويثور بتصريحات لعلها كانت تتوقعها جميعاً . . فهو الآخر يحبها ويريد منها أن تلتقى به فى خلوة . . ولكنها ترد عليه رداً لم يدل على نفور وربما لم يدل على عدم ميل . . ويلح عليها ، بينما الخال فانيا يقف بالباب يشاهد ويسمع ، فإذا دخل غير الطبيب الحديث فى اضطراب ، وخرج لا يلوى على شىء ! وتستغيث هيلانا بفانيا وتلح عليه أن يحمل زوجها على الرحيل لأنها ماعادت تطيق جو هذا البيت ولكنه لا يأبه بها ويكتفى بأن يقول لها إنه شاهد وسمع . . .

ويدخل الأستاذ ومعه حماته القديمة (أم فيلتسكى) ويعرض اقتراحاً ببيع البيت والأرض ليشترى بثمنهما (فيللا) فى فنلندا ، فيتصدى له الخال فانيا معترضاً ويثور عليه ، ويتهمه بإفساد حياته أيام كان مخدوعاً فى علمه ، متبتلاً له ، ويقرأ له ويعمل يومه من أجله . . والآن ها هو ذا يحاول طرده من البيت الذى كان له أكبر الفضل فى وجوده ، ويزداد هياجه فيحاول قتل الأستاذ . . إلا أنه لحسن الحظ لم يفلح . . وبعد كل ذلك تصرخ هيلانا وتقول إنها تؤثر الموت على مثل هذه الحياة فى هذا المكان . . فيزمع الأستاذ الرحيل .

* * *

يدخل الخال فانيا مضطرباً ويسرع خلفه الطبيب إستروف ، ونفهم مما يدور بينهما أن

الخال اختلس منه بعضاً من المورفين ليقضى على حياته ، والطبيب يقول له إذا أردت الموت فأمامك الغابات . فاقض على نفسك بما أنت قاض . ولكن رد إلى المورفين أولاً حتى لا أتهم فى قتلك ؛ والآخر ممانع فى ذلك أشد الممانعة . . وهو يحرق الأرم لأنه فشل فى قتل الأستاذ ويتألم أشد الألم لأنهم لم يقدموه إلى المحاكمة اعتقاداً منهم فى حماقته . . أيحسب هو من الحمقى ولا يحسب منهم ذلك الأستاذ الذى يخفى تحت اسم الأستاذية جهلاً وغباء ؟ أيحسب هو من الحمقى ولا تحسب منهم تلك المرأة التى تتزوج من عجوز وتخونه مع طبيب ؟ ! والطبيب يسمع كل ذلك ولكنه لا يحفل به فهو غارق فى اليأس إلى قمة رأسه . . . . وعند ما يهم بإنذار الخال ثانيا باستعمال القوة إذا لم يرد له المورفين تدخل صونيا ولا تلبث أن تفهم ما هنالك وتراع له ، وكانت إلى ذلك مجروحة الفؤاد بعد أن علمت بانصراف قلب الطبيب عنها ، إلا أنها بالرغم من ذلك كله تقبل على خالها تهدىء من خاطره وتلح عليه أن يرد للطبيب المورفين وتعزيه بأنهما ليست أقل شقاء ولكنهما أجلد وأشد صبراً . . . أمامهما العمل . . وفى العمل عزاء وسلوى .

فإذا اقتنع ورد السم للرجل صحبته من يده إلى أبيها لتصلح ما بينهما من الأمر .

وتدخل هيلانا على الطبيب وهو منفرد . . . هى راحلة . . وينتهى كل شىء ويلحق بعالم الأحلام . . فقط تود ألا يذكرها بسوء وأن ينظر إليها نظرة لا تملو ولا تسفل عن حقيقة أمرها . . ويحدثها هو عما يلذه فيهم جميعاً من حب العطلة واليأس . . ولكن الوقت لا يتسع لذلك فهى راحلة ، وهنا لا يتمالك أن يهوى على خدها بشفتيه . . ولم تمانع ولم تتنكر فى الممانعة : فإن ساعة الوداع كالنوم المغناطيسى تكشف الخبايا وتبطل الإرادة . . وهى تتلمت بتنة ويسرة . . ثم تمنحه قبلة . . ولو مرة فى العمر !

انتهى كل شىء ! هاهو ذا الأستاذ سيريبريا كوف يصافح ثانيا وقد تصافيا . . وهاهو ذا يغيب مع زوجه الجميلة . . ويخرج بعده الطبيب . . وتخلو الحديقة من أزهارها . . وتعود الفتاة وخالها إلى العمل . . إلا أنه لا يقاوم دمعه . . فتعزيه وتهون عليه وتقول له وهى تغالب ألماً أشد من ألمه :

« سوف نستريح وسوف نصغى إلى الملائكة . . سنشاهد السماء كلها فى بهاء . . وسنرى الشر والألم يغمرها حنان يملأ الوجود وتمسى حياتنا هادئة ناعمة رغدة . . إنى أومن بذلك ياخال . . إنى أومن بذلك . . إنك لم تذق لذة فى حياتك . ولكن صبراً ياخال فانيا صبراً ! سوف نستريح . . سوف نستريح » .

نجيب محفوظ